التعرف على آثار (البَرَّةِ العُلْيَا)

عبدالله بن محمد الشايع

عندما يطرق السمع ذكر اسم «البَرَّة» يقفز إلى الذهن تذكر الشاعر «يحيى بن طالب الحنفي» الذي كان يسكن «البرة العليا» زمن الدولة العباسية. وكان هذا الرجل مثالاً للشهامة والكرم؛ يقرى الضيف ويساعد المحتاج. وفي آخر أمره امتحنه الله بغلبة الدَّين وقهر الرجال. فَفَرَّ هارباً إلى العراق وخراسان، فذاق مرارة الغربة والبعد عن الأهل والديار؛ مما جعله يذرف الدموع وينشد الأشعار تشوقاً إلى وطنه ومكان عزه. وكثيرون هم الذين يحفظون أشعاره، ولكنهم لا يعرفون داره؛ تلك الدار التي بناها على اليفاع ليراها الغادون والرائحون حتى يقصدها من يحتاج إلى القرى من عابري السبيل.

فياترى: أين «البرة العليا» موطن يحيى بن طالب؟!

في زمننا هذا يطلق مسمى «البَرَّة» على تلك البلدة الواقعة غربي جبل «طُوَيْق» غير بعيد منه، وبالتحديد بين بلدتي «العُوَيْند» و«رُغَبَة» ولا شك عندي أن هذه البلدة هي إحدى البرتين: العليا والسفلى.

وبما أن سيل بلدة «البَرَّة الحالية» يدفع عليها من جهة الشمال الشرقي، لذا توقعت أن تكون «البرة العليا» في هذا الاتجاه وأن البلدة الحالية هي «البرة السفلى».

ومن الأمور التي سألت عنها رئيس مركز «العُوَيْنِد» الأخ «محمد أبو ونيان» أثناء مقابلتي له هذا السؤال:

هل يوجد في أعالي الأودية التي يدفع سيلها باتجاه بلدة «البرة» آثار مساكن قديمة أو آبار؟

فأجابني قائلاً: لا أعرف بين «البرة» وجبل «طويق» إلاَّ مكاناً يسمى «الثرماني» فيه آبار ومساكن قديمة.

وقبل أن نعوج صدور ركائبنا باتجاه «الثرماني» بحثاً عن «البرة العليا» دعونا نلقي نظرة على ما قاله علماء البلدان قديماً وحديثاً عن «البَرَّة العُلْيَا» والبَرَّة السُّفْلى:

من أقوال قدماء علماء البلدان:

يقول ياقوت الحموي:

(البَرَّة... والبرة العليا والبرة السفلى، ويقال لهما البرتان:

قريتان باليمامة، وكانت البرة العليا منزل يحيى بن طالب الحنفي، وكان قد أثقله الدَّين فهرب وقال أشعاراً كثيرة يتشوق وطنه، وقد ذكرت خبره في قَرْقَرَى؛ وقال يذكر البَرَّة:

خليليَّ عُـوجـا بارك الله فـيكمـا
على البَـرَّة العليـا صُـدُورَ الركـائب
وقـولا إذا مـا نَوَّه القـوم للقِـرى
ألا في سـبـيل الله يحـيى بن طالب[1]

وقال ياقوت في رسم «قرقرى»:

(... عن يزيد بن العلاء بن مرقش قال حدثني أخي موسى بن العلاء قال: كنَّا مع يحيى بن طالب الحنفي أحد بني ذُهل بن الدّؤل بن حنيفة كان مولى لقريش وكان شيخاً ديناً يقرئ أهل اليمامة وكانت له ضيعة باليمامة يقال لها البَرَّة العُليا، وكان يشتري غلاَّت السلطان بقرقرى، وكان عظيم التجارة، وكان سخياً فأصاب الناسَ جَدْبٌ فجلا أهل البادية فنزلوا قرقرى ففرق يحيى بن طالب فيهم الغَلاَّت وكان معروفاً بالسخاء، فباع عامل السلطان أملاكه، وعَزَّه الدَّيْنُ فهرب إلى العراق وقد كان كتب ضيعة من ضياعه لقوم قراراً لهم بها لئلا يبيعها السلطان فيما يبيع فكابره القوم عليها فخرج من اليمامة هارباً من الدَّين يريد خراسان، فلما وصل إلى بغداد بعث رسولاً إلى اليمامة وكنا معه فلما رآه في الزَّورق اغرورقت عيناه بالدموع وكان معدوداً من الفصحاء فأنشأ يقول:

أحقاً عباد الله أن لستُ ناظراً
إلى قرقرى يوماً وأعلامِها الغُبْرِ
كأنَّ فؤادي كلما مَرَّ راكبٌ
جناحُ غُرابٍ رامَ نهضاً إلى وكرِ
أقول لموسى والدموع كأنها
جداولُ فاضت من جوانبها تجري
ألا هل لشيخ وابن ستين حِجَّةً
بكى طرباً نحو اليمامة من عُذْرِ
وزهَّدَني في كل خير صنعتُهُ
إلى الناس ما جرَّبت من قلة الشكر

إذا ارتحلَتْ نحو اليمامة رفقةٌ

دهاك الهوى واهتاج قلبك للذكر

فوا حزَني مما أجنّ من الأسى

ومن مضمر الشوق الدخيل إلى حجري

تغربت عنها كارهاً وهجرتها

وكان فراقيها أمَرّ من الصبر

فيا راكب الوجناء أُبْت مسلَّماً

ولازلت من ريب الحوادث في ستر

إذا ما أتيت العِرْض فاهتف بأهله

سقيت على شحطِ النوى مُسبَل القطر

فإنك من وادٍ إليّ مُرَجَّب

وإن كنت لا تزداد إلا على عَقري

المرجَّب: المعظَّم؛ ومنه قول الأنصاري: أنا جُذَيلُها المحكَّك وعُذَيقُها المرجّب. وبه سمي رجب لتعظيمهم إياه، وحدث أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي قال أخبرني أبو الحسن علي بن محمد المدائني قال:

كان يحيى بن طالب الحنفي مولى لقريش باليمامة، وكان شيخاً فصيحاً ديِّناً يُقَرِّىء الناس، وكان عظيم التجارة، وذكر مثل ما تقدم، فخرج إلى خُراسان هارباً من الدَّين، فلما وصل إلى قومس قال:

أقول لأصحابي ونحن بقومس

ونحن على أثباجِ ساهمةٍ جُرْدِ

بَعُدْنا وبَيتِ اللّه عن أرض قرقرى
وعن قاع موحوش وزدنا على البعد

فلما وصل إلى خراسان قال:

أيا أثلات القاع من بطن توضح
حنيني إلى أطلالكنّ طويل
ويا أثلات القاع قلبي موكّلٌ
بكُنَّ وجدْوى غيركنّ قليل
ويا أثلات القاع قد مَلَّ صحبتي
مسيري فهل في ظلّكن مقيل
ألا هل إلى شَمّ الخُزامى ونظرة
إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فأشرب من ماء الحُجيلاء شربةً
يُداوى بها قبل الممات عليل
أحدّث عنك النفسَ أن لست راجعاً
إليك فحزني في الفؤاد دخيل
أريد انحداراً نحوها فيصُدّني
إذا رمته دَيْنٌ عليَّ ثقيل

قال أبو بكر الأنباري: وقد غُنّيَ بهذه الأبيات عند الرشيد فسأل عن قائلها فأخبر فأمر برده وقضاء دَينه، فسئل عنه فقيل إنه مات قبل ذلك بشهر، وقد قال:

خليليَّ عـوجـا، بارك اللّه فـيكمـا
على البُـرَّة العليـا صـدور الركـائب
وقـولا إذا مـا نَوَّه القـوم للقـرى
ألا في سـبـيل الله يحـيى بن طالب[٢]

انتهى.

لعلنا نكتفي من أقوال القدماء بما قاله ياقوت عن يحيى بن طالب ومنزله البرة العليا.

أمَّا ما قاله الباحثون في العصر الحالي:

فيقول الشيخ محمد بن بليهد، وهو يتكلم عن مسمى «البرتين»: (... وأما البرتان اللتان ذكرهما يحيى بن طالب الحنفي في أشعاره فهي البرة الواقعة في اليمامة ...)[٣] لم يتكلم رحمه الله عن برتي اليمامة ولم يفرق بين البرة العليا والبرة السفلى حيث كان كلامه مقتصراً على تحديد البرتين الواقعتين في عالية نجد، وهما هضبتان.

ويقول الأستاذ عبدالله بن خميس في رسم «البَرَّة»:

(... ويعبر عنها قديماً بالبرتين العليا والسفلى، ولا يعرف الآن سوى برة واحدة وأسفل منها جنوبيها شرقيها بليدة «العُوَيْند» كانت لبني خديج، ويسكنها الآن «آل وُنَيَّان» من حرب فهل يطلق عليها البرة من باب التغليب؟ ربما)[٤].

انتهى.

من هذه الأقوال المتقدمة لم يتحدد لنا معرفة مكان «البرة العليا»؛ أما كونها بلدة «العُوَيْند» على حد تساؤل مؤلف «معجم اليمامة» فيمكنني الإجابة عن هذا التساؤل

بأن العويند ليس هو «البرة السفلى أو العليا»، لأن اسمه قديم لم يتغير فهو معروف عند المتقدمين وينسبونه «لبني خديج» من بني تميم.

لذا فإن الأمر يقتضي منا تحقيق مكان «البرة العليا» التي خلدها «يحيى بن طالب» في شعره.

الثرماني:

قبل أن أتكلم عن زيارتي لآثار «الثرماني» أو «الثرمانية» دعونا نستعرض ما قاله الباحثون في وقتنا الآن عن هذا الأثر:

١- يقول صاحب «معجم اليمامة»:

(ثَرَمُ: ... قال ياقوت: وهو اسم جبل باليمامة، قال زياد بن منقذ من قصيدة الحماسة:

والوشم قد خرجت منه وقابلها
من الثنايا التي لم أقلها ثرم)

... - للمؤلف كلام لطيف عن كلمة «ثَرَم» وما يعنينا هو تحديد المكان، وبشأنه يقول:

(ولا يبعد أن «ثرم» الذي يلي «البَرَّة» هو «الثرمانِيَّة» المتقدم ذكرها والله أعلم)[٥].

٢- ويقول أيضاً في رسم «الثُّرْملية»:

(الثُّرْمُلِية: ... قال ياقوت - بعد ضبطه -: ماء لبني عطارد باليمامة، عن الحفصي.

ثم قال:

لم أجد فيما بين يدي من المراجع من رَسَم له غير ياقوت، وابن الفقيه أشار إليه إشارةً على أنه حصن. . ولا أعرف ماءً في اليمامة يحمل هذا الاسم الآن. . إلاَّ أن يكون المراد به «الثرماني» أدركه التحريف فجاء هكذا، على أنني أسمع بعض الناس يقولون للثرماني: «الثرمانية» وهو ماء به قصر أثري على رأس جبل شمال شرق «البَرَّة» مقابل ثنية «أبي قَتَادة» من الغرب، وقد مررت به أكثر من مرة.

أما ابن الفقيه فيقول: «والثرملية حصن من حصون طسم» ولم يزد على ذلك)[٦]. انتهى قوله.

التعليق:

كأني بالأستاذ عبدالله بن خميس - سلمه الله - لم يكن متأكداً من أن «الثرماني» أو «الثرمانية» مسماها قديم بدليل قوله وهو يتكلم عن «ثَرَم»:

«ولا يبعد أن ثرم الذي يلي البرة هو الثرمانية».

وقوله في رسم الثرملية:

«ولا أعرف ماءً في اليمامة يحمل هذا الاسم الآن؛ إلاَّ أن يكون المراد به «الثرماني».

ولعل قوله الثاني في رسم «العُوَيْند» أقرب إلى الصواب حيث قال هناك:

(وقيل إن العويند هو «البرة السُّفلى» إذ كانوا يقولون: «البرة العليا» و«البرة السُّفلى» ... وقيل: إن المراد بـ«البرة العليا» الثرماني، وبـ«البرة السفلى» البرة الموجودة الآن. . والله أعلم)[٧]. انتهى.

الزيارة الميدانية للثرماني:

عندما وصلت إلى بلدة «البَرَّة» التي يمر بها الطريق المزفت تجولت فيها وفيما حولها، وبعد أن جاوزتها متجهاً شمالاً تركت الطريق واتجهت ناحية الشمال الشرقي إلى موقع «الثرماني» الذي لا يبعد كثيراً عن بلدتي «البرة» و«العُوَيْند» حيث يبعد عن «البرة» سبعة أكيال ونصف الكيل.

ووادي «الثرماني» - كُحَيْل قديماً حسبما أرى - يقطع خط الزفت المتجه من «البرة السفلى» إلى «رغبة» من نقطة تبعد عن الثرماني باتجاه الغرب بخمسة أكيال ونصف الكيل فقط.

عندما وصلت إلى الموقع وجدت آثار «الثرماني» مازالت واضحة المعالم تقع بين جبال متطامنة.

ومن يقف وسط الوادي يرى جهة الجنوب بئراً زراعية ويوجد عند فوهة البئر مقصورة، ويقابلها عند أسفل «المنْحَاة» مقصورة أخرى يقابلها من الغرب فناء لحفظ السَّواني. وهذا يعطينا دليلاً على ما كان عليه الفلاحون في عصور مضت من معاناة وضيق معيشة.

انظر إلى صورة البئر وملحقاتها المنظر رقم (١).

كما يرى من الناحية الشمالية جبل متطامن مستوي الظهر أقيم فوقه حصن قديم مازال سوره الخارجي قائماً وفي جهته الجنوبية الغربية مقصورة، أما حجراته الداخلية فقد انهارت لأن سقوفها من الخشب.

وهذا الحصن المنيع مشيد بالحجارة المهذبة، وهو مشرف على ما حوله، ويطل من الناحية الغربية على مجرى واد محصور بين جبلين ويُرَى على ضفة هذا الوادي

شجر الأثل وجذوع النخل وبعض المباني الزراعية القديمة المتهدمة، ويدل بقاء بعض المباني الطينية وموجوداتها أن المكان كان معموراً إلى عهد قريب.

انظر إلى صورة الحصن الأثري المنظر رقم (٢) ومقصورته المنظر رقم (٣) لقد تجولت في أنحاء الموقع، وقد شدني كثيراً هذا الحصن الحجري المنيع المقام على هذا المرتفع العالي. وكأني بمن كان يسكنه ينادي عابري الطرق التي تتجمع وتمر مع هذا الفج بين الجبال ليقول لهم: حَيَّ على القِرى!!

ومما لفت نظري خارج الحصن وجود حوض منحوت في الصخر الثابت، وقد نُقر بجوار هذا الحوض حفرتان صغيرتان، كما يوجد حول الحوض عدد من الحفر الصغيرة المنحوتة في الصخر.

وهذا الحوض الحجري وما حوله يقع بجوار حائط الحصن من الناحية الشمالية. وقد احترت في أمر هذا الحوض، ولم أجد تعليلاً لذلك سوى أن يكون أُعدَّ للضيافة وخاصة لطارق الليل؛ بحيث يملأ الحوض الكبير بالماء وتملأ الحفرتان المَجاورتان له بالتمر، والحفر الصغيرة لوضع النوى.

وقد يجد غيري تعليلاً آخر لوجود هذه الحفر المنقورة في الأرض الحجرية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو:

هل كان ساكن هذا الحصن أو القصر «يحيى بن طالب الحنفي»؟

الإجابة عن هذا السؤال سنحصل عليها بعد استقراء النصوص الواردة، وما نستشفه من شعر يحيى بن طالب الذي وصل إلينا من العراق وخراسان.

وإليك تحليلي لهذه النصوص:

أولاً: تبين لي أن بلدة «البرة» العامرة حالياً هي «البرة السفلى» لأنه لا يوجد هناك غرباً منها أي آثار لقرية قديمة.

أما البرة العليا فلابد أن تكون مما يلي جبل «طويق» لأن أعالي الأودية والشعاب تدفع منه باتجاه بلدتي العويند والبرة.

وبما أنه لا يوجد آثار لمنازل وآبار زراعية قديمة في هذا الاتجاه سوى آثار «الثرماني» فقد انحصر بحثي عن «البرة العليا» في هذه الناحية.

ثانياً: ذكر يحيى بن طالب في شعره وهو يتوجد على موطنه مواضع عديدة منها: «قرقرى» و«بطن توضح»، و«الحجيلاء» إضافة إلى «البرة العليا» وفيها مسكنه وأهله.

وجميع المواضع التي ذكرها تجاور «الثرماني» من ناحية الجنوب.

ثالثاً: كما ذكر أن منزله يقع فوق مرتفع من الأرض على جادة الطريق حتى يراه من يرغب القِرى؛ يدل على ذلك ما أورده صاحب «الأغاني» حيث قال:

(... كان يحيى بن طالب جواداً شاعراً جميلاً حَمَّالاً لأثقال قومه ومغارمهم، سمحاً يقرى الأضياف، ما تشاء أن ترى في فتى خصلة جميلة إلا رأيتها فيه، فدخلت عليه - رجل من بني حنيفة - وهو في آخر رمق، فسألته عن خبره، وسَلَّيته وقلت له ما طابت به نفسه، ثم أنشدني قوله:

ما أنا كالقول الذي قلت إن زوى
مَحَلِّيَ عن مالي حِذارَ النوائب
بمنزلةٍ بين الطريقين قابلتْ
بوادي كُحَيْلٍ كُلَّ ماشٍ وراكبِ
حللت على رأس اليفاع ولم أكن
كمن لاذ من خوف القِرى بالحواجبِ

فـلا تسـأل الضِّـيـفـان من هم وأدْنهم
هـمُ الناسَ من مـعـروف وَجْـهٍ وجَـانبِ
وقـولوا إذا مـا الضـيف حَلَّ بنجـوة
ألا في سـبـيل الله يحـيى بن طالبِ

قال أبو العالية: كُحَيْل: نخل بناحية قَرَان دون قَرْقرى، وهناك كان منزل يحيى بن طالب)[٨]. انتهى.

أقول:

لم تجتمع لنا أوصاف ويتوافر نصوص واضحة كما ورد عن «البرة العليا» منزل يحيى بن طالب الحنفي؛ هذا الرجل الكريم المضياف الذي سار ذكره في مشارق الأرض ومغاربها فكان حديث مجالس الفضلاء والخلفاء مثل أمير المؤمنين «هارون الرشيد» - رحمه الله - الذي جاء عطفه على هذا الرجل الكريم متأخراً، ولعل الله أراد به خيراً في آخرته؛ لأن قومه كافأوه بالجحود، ولم يدركه عطف خليفة المسلمين. فمن يدري؟!

وإنه لمن العقوق منا في حق يحيى بن طالب هذا العربي المسلم الموصوف بالشهامة والكرم ألاَّ نتعرف على منزله الذي كان محط الركبان وذوي الحاجات وهو قريب منا، لا سيما وقد وصف لنا مكانه وصفاً واضحاً، ومن هذه الأوصاف الواضحة:

١- أنه منزل بين الطريقين. والطريقان اللذان أشار إليهما هما: الطريق القادم من جهة الشمال الشرقي، من جهات بلدان المحمل مروراً بـ«حُرَيْملاَء» ووادِيها المسمى «قُرَّان».

والطريق الثاني يأتي من جهات خشم «أم الرِّحال» التي يتجمع عندها من ينزل من عقبات طويق الموالية لها مثل:

عقبة «جمهور» وعقبة «أم الغبطان» وغيرهما.

فكل هذه الطرق تمر بمنازل ومزارع «الثرماني» أعني «البرة العليا قديماً» وأعلام هذه الطرق مازالت موجودة حتى الآن.

انظر إلى صورة أحد هذه الأعلام وهو علم أرضي واقع على الجادة جنوب منزل يحيى بن طالب، المنظر رقم (٤).

وهذا ما أخبرنا به في شعره حينما قال:

بمنزلة بين الطريقين قابلتْ
بوادي كحيل كُلَّ ماشٍ وراكبِ

٢- كما وصف لنا منزله الذي يستقبل فيه أضيافه أنه على نشز من الأرض يراه الجائع والمحتاج حيث قال:

حللت على رأس اليفاع ولم أكن
كمن لاذ من خوف القِرَى بالحَواجِبِ

لقد تعرفت على منزل يحيى بن طالب من وصفه الواضح؛ فهو هذا القصر الأثري القديم المقام فوق الجبل المطل على وادي «كُحَيْل».

٣- أما عن المكان الذي تقع فيه «البرة العليا» فقد حدده لنا «أبو العالية» في النص المتقدم حيث قال:

(كُحَيْلُ: نخل بناحية «قَرَان» دون «قَرْقَرَى» وهناك كان منزل يحيى بن طالب).

فهذا النخل الذي ذكره أبو العالية هو نخل شاعرنا وقد سمي الوادي باسمه فالوادي بما يحويه من آثار يقع كما وصف أبو العالية بين «قُران» - وادي حريملاء

الآن - وبين «قرقرى» وهي ما يطلق عليه الآن بطين «ضَرَما». ومن مياهه وقراه الشمالية:

«العويند» و«البَرَّة» - وهي البرة السفلى - وماء «الحُجَيْلاَء». وهذه المواضع مجاورة للبرة العليا.

ويبدو لي أن البرة العليا لم تكن داخلة في ما يسمى قديماً بـ«قرقرى» نظراً لوقوعها داخل الجبال ولذا عدها «أبو العالية» واقعة بين «قُرَّان» وبين «قرقرى»، وهذا القول هو ما يتمشى مع واقع وطبيعة الأرض.

وأحب أن أنبه إلى أن كلمة «قُرَّان» وردت في كتاب «الأغاني» مُصَحَّفة حيث كتبت «فَرَان» بالفاء والصحيح أنها بالقاف؛ لأنه لا يوجد موضع في هذه الناحية يسمى «فران».

أرجو أن أكون وفقت في تحديد هذا الموضع التاريخي، سائلاً المولى القدير أن يرحم «يحيى بن طالب الحنفي» صاحب هذا القصر العالي، وأن يعوضه عن نفقاته وصدقاته على المحتاجين والمعوزين بقصر في الجنة. وبالله التوفيق.

الهوامش

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي. نشر دار بيروت للطباعة والنشر، طبع سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م. (ج ١/ ٤٠٦).
(٢) معجم البلدان: ياقوت الحموي. (ج ٤/ ٣٢٦-٣٢٧).
(٣) صحيح الأخبار: محمد بن بليهد. الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م. (ج ٢/ ٩٣).
(٤) معجم اليمامة: عبدالله بن خميس. الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م. (ج ١/ ١٥٩).
(٥) معجم اليمامة: (ج ١/ ٢٢٧).
(٦) معجم اليمامة: (ج ١/ ٢٣٣).
(٧) معجم اليمامة: (ج ٢/ ١٩٣).
(٨) الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني. دار الثقافة / بيروت (ج ٢٣/ ٢٩٦).

(١) منظر بئر زراعية حولها مقصورتان بجوار منزل يحيى بن طالب في البرة العليا.

(٢) منزل يحيى بن طالب وقد بناه فوق اليفاع كما قال.

منظر رقم (٣) المقصورة الرئيسة في الزاوية الجنوبية الغربية من قصر: يحيى بن طالب الحنفي.

منظر رقم (٤) أحد الأعلام الأرضية على جادة الطريق الذي يمر من جوار قصر يحيى بن طالب في البرة العليا.